WWW.ATTAWEEL.COM

مجلة تراثية فصلية محكمة

المجلد الخامس والعشرون ـ العدد الاول ـ ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م

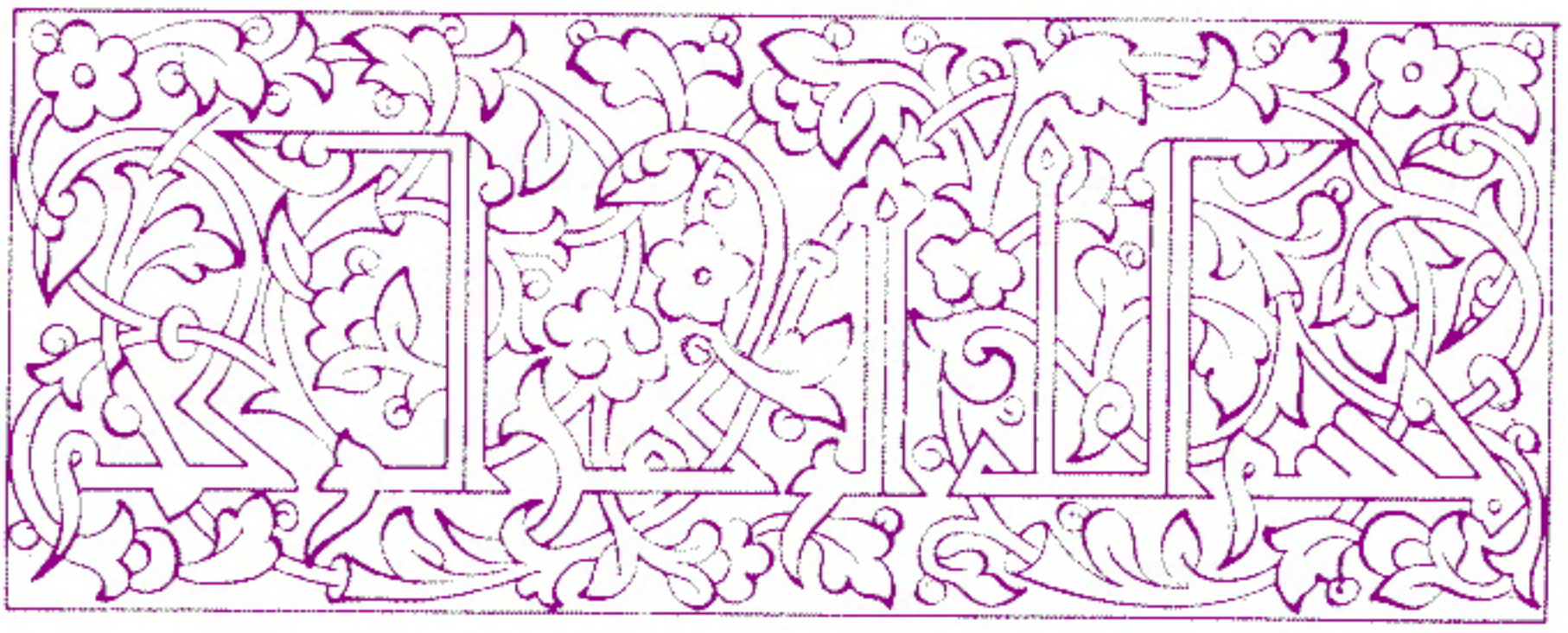

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ جمهورية العراق

أسد الدين محمد

انكيدو والتصوف الاسلامي •

شاكر حسن آل سعيد

• اللهم ان العلم عندك وهو محجوب عني ، ولا اعلم امرا
فاختاره لنفسي . ذلك لوقت اليك امري ، فوجهني للذي
فيه رشدي ، وقربني فاردفني .
• ابو عبد الشافعي •

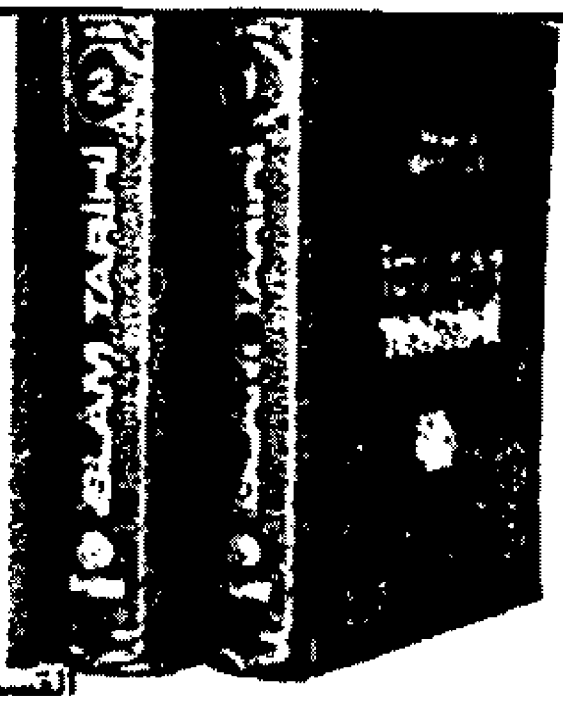

القسم الاول

مقدمة

يظل التاريخ الثقافي للفكر الرافديني بمثابة المقطع الطولي لشجرة المرفة في بلاد مابين النهرين* منذ اقدم العصور التاريخية . فلو نحن استعرضنا المواقف الثقافية للانسان العراقي منذ ابتداعه الاشكال الاولى للمواصلات اللغوية ، واعني بها الابجديات الزخرفية والتدوينية وهي في مراحلها التكوينية [الجينيولوجية] لامكننا ان نلمح فيها [أجنة] بل جينات العديد من الصفات الثقافية الموروثة ، ومن اهمها ما يخص شخصية انكيدو بالذات .

ان ما يميز هذه الشخصية المتميزة في الميثولوجيا الرافدينيه [ايقاعها] المكاني ، او بالاحرى [انسانيته المشوبة بالخليقة الحيوانية] . ذلك ان ملامحه المنحوتة او الموصوفة في النصوص الاسطورية ، تمثله على هيئة [انسان / حيوان] ، على الضد من شخصية جلجامش ، الذي تمثله الاساطير [انسان / اله] . فمثل هذه النسبة للمخلوق ، وليس للخالق ، تستنبطن من الناحية الفكرية والثقافية نزعة الانسان للاتجاه الى الطبيعة عبر الكائنات ، تلك النزعة التي تمرس بها الانسان (العائد) لا جامع النشار في العصر الحجري القديم ، والتي في جوهرها تؤول بصورة مسبقة او سابقة لاوانها ، طبيعة الفكر في العصر الحجري الوسيط ، بل الفكر في المجتمعات الرعوية لا الزراعية . ومن هنا فهي ذات نسب واضح بالفكر السومري الاسيوي [والذي يحتكم الى الوجود الشيئي للطبيعة ، او الى المملكة النباتية او النبات الطبيعي] [1] وان لم يكن صوفياً بل سحرياً

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان الرغبة الى التجذر والاستقرار في الاصل يشعر شخصية انكيدو[2] بالارض لا بالسماء ، وبالطبيعة وليس بما وراء الطبيعة ، ومن هنا معنى موت انكيدو ، ودفنه في باطن الارض لا ارتفاعه الى السماء . فكانها ، اي الرغبة الى التجذر ، تؤكد معنى [سكونية] الوجود الموضوعي للذات Sujet . فانكيدو ، اذن ، يبدو وكانه مخلوق ثقافي سومري اكثر منه مخلوقاً اكدياً . [مع انه وجلجامش نتاج سومري بالاصل] . ولكني هنا اشير الى اسبقية وجوده الثقافي على جلجامش ، اي بعد خلقه ، لا وجوده التاريخي .[3] ذلك ان جلجامش في جوهره وجود (مستقبلي) ، ضد ما ضوى ، فهو ينزع نحو التحرر من الطبيعة بوالارض عبر موضوعية الذات في توجهه نحو الالهة من خلال (تجاوزاته) ، ثم بحثه المضني للحصول على سر الخلود . وهكذا . فهو اذن يمثل (الرغبة) لـ التغيير والابداع والحركة وعدم الاستقرار او الثبات ، تماماً على الضد من انكيدو الذي ظل ساكناً في (ازله) الخليقي قبل ان يلتقي بجلجامش

وهذا بعض ما يرسم الملامح الانكيدوية ويصف لنا وجوده التكويني [الجيني] . فهو العلامة الاولى على [وحدة الوجود الخليقي] .[4] واننا لنجد مثل هذه العلامة بوضوح في بعض الوحدات الزخرفية والتصويرية على فخاريات دور سامراء وحلف والعبيد في عصر ماقبل السلالات في العراق ومن ضمنه الدور الشبيه بالكتابي .[5] [فمن ذلك مثلاً وحدة الكائن [الحيواني / النباتي] كما هو ملاحظ في الرسوم على فخار دور العبيد (٤٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ق.م) . فهنا نشاهد معنى اندماج الانفس بـ (الاخش) ، [بتعبير بلاغي ظهر في العصر الاسلامي ، كناية عن العلاقة بين الظاهر والباطن .[6] او ان الاشارة الى الانفس والاخس هو في حقيقته [تفسخ] او تفكك تحليلي لوحدة الوجود التركيبي التي نراها ماثلة في عصر ما قبل السلالات في العراق ، مع العلم ان منزلة الكيان الحيواني / النباتي هي دون منزلة الكيان

---

* ـ القسم الاول من فصل مخطوطة كتاب « جوهر الثنائي بين الانا والاخر » .

1 ـ آثرنا الابقاء على التسمية التاريخية والاثارية للعراق ، (بلاد مابين الرافدين) كما يعلم الاثار . والا فان الاجدر بنا ان نستخدم تسمية (العراق) بدلاً من (وادي الرافدين) . او (ميزوبوتاميا) Mesopotamie كما جاءت الينا في لغتها اليونانية اطلقه عليه اليونانيون ، على حالها . لانها تسمية إصطلاحية ، لها مناخها الخاص

[الالهي / الانساني] ؛ اي منزلة جلجامش من انكيدو ، فكانهما بدروهما يمثلان معنى الانفس والاخسن] . ان وحدة الكائن الخليقي [الحيواني / النباتي] او صورة الماعز الجبلي بقرنيه الطويلين والذي يذكرنا باموواج المياه وبذنبه الذي يمثل سنابل الحقل[٧] هو دونما شك (اندماج) ذوباني لا خليطي ، يتاصل فيه معنى النبات في الحيوان [ربما هي وحدة التصور الرعوي في طوايا العالم النباتي ، اي الزراعي Cultivated Plants .] فاذا كان الامر كذلك فهو اذن (معاصرة) و (آنية)[٨] مكانية Spacial Sy nchrony/ عند تخلق وجود الرمز الرعوي الذكري بالزراعي الانثوي[٩] ، وهذا ما يوازي معنى تداخل ذهنية العصر الحجري الوسيط بذهنية العصر الحجري الحديث ، او بالاحرى مدى تداخل معنى الرعي بمعنى الزراعة . ولكنه بلا شك كان يمثل ايضاً عملية تواصل لغوي بصيغته الايروتيكية ، اعني تزاوج عصرين ثقافيين وكيانين ذهنيين يعتمدان على ثوابت اقتصادية [= التقاء انتماء الانسان الى الطبيعة المانحة والاقتصاد الاستهلاكي شبه الانتاجي ، بالثقافة الانسانية المنتجة والاقتصاد الانتاجي][١٠] . ان شخصية انكيدو وهي في (ازلها) الخليقي تؤشر لنا هذا الكمون الموتي في العصر الحجري الوسيط . فكان تآلفه مع الحيوان يرسم لنا مدى حاجته (للعصا السحرية) المستعاض عنها من قبله بمعاشرته اياها عند ارتباطه بعشب الارض وبقلها ومياه امطارها وغدرانها ، ولكنها ايضاً سترتبط فيما بعد هذا (الازل) بالعصر الحجري الحديث : بثقافة الانسان . ومادمنا عند معنى الاندماج بين ذهنيتين تمثل لها رموزاً ماورائية (او بالاحرى قبلية Aorist) بالنسبة لشخصية انكيدو ، فنستطيع ان نقول : ان هذا الاندماج [الذوباني] في رسوم دور العبيد سبقه بلا شك تمايز [خليطي] في رسوم دور سامراء وما قبل ، لكلا العنصرين الحيواني والنباتي او الحيواني / الحشري ، وهذا ما توضحه رسوم فخاريات الدور الذي يصنع الرسوم الحيوانية والنباتية جنباً الى جنب ، او انه يفرد لكلا العنصرين في عدة مصنفات مستقلة . ولكن جرة من جرار « عصر العبيد من بداية الالف الرابع ق . م وجدت في تبه گورا »[١١] تعلن لنا عن هذا الوجود الذوباني متمثلاً في تجاور عدة حقول تشخيصية من الرسوم [واهمها الحقل الذي يجمع مابين مشهد الحيوان والاشكال المثلثة (لعلها تمثل الجبال او الاكواخ) ، والشكل المتموج « رمز الماء والحركة » تتفرع منه خطوط مستقيمة [لعلة حشرة ام اربع واربعين او النهر منظوراً من مسقط خرائطي)] . فاذا ما حللنا الرسوم الفخارية من دور سامراء اتضح لنا بصورة اكيدة مدى إنطواء الرسوم الهندسية الزخرفية على عناصر لرسوم تشخيصية ، حيث الرسوم الهندسية تمثل الفكر الزراعي والتشخيصية تمثل الفكر ما قبل الزراعي [للعصر الحجري الوسيط وربما العصر الحجري القديم في شكل عقد متحجرة او مقبلورة] . ذلك ان [الترميز الاثنولوجي] لهذه الزخارف الان يحيلنا الى كثير من التفسيرات ذات الاصل المرتبط بالطبيعة لذاتها ... بالماء والمطر والحيوان والقمر الخ ... مثلما (يُؤوّل) لنا تكامل الشكل على السطح التصويري La Surface Pictorale كارهاصات في الاشكال التخطيطية ، التي تكتسب معانيها الشكلية بواسطة التقاطع بين الخطوط او الحزوز المكررة كما هو معروف في الرسوم الزخرفية لدور حسونة في الالف السابع ق . م . وفي جميع الاحوال فان الرسوم الزخرفية ذات القوام الهندسي لهذا الدور والدور الذي يليه [تستبطن] الملامح التشخيصية فكانها معنى [الالوبان] لما بين الفكر المؤول والمؤول (بالكسر) ، سبر الحيوان والنبات الى جانب معنى [الخليط] ، وذلك حينما تتجاوز مجموعة من الوحدات بكياناتها كالوبانات لكلا العنصرين ، وما منزلة الحيوان من النبات سوى منزلة الانسان من الحيوان . وهو ما سيتضح في دور العبيد وما بعده في عصر فجر السلالات .

فعلى سبيل المثال ، ذانكما الاناءين من الفخار « المصبوغين ببرقشة هندسية رائعة من صناعة حلف (منتصف الالف الخامس ق . م ، وجدا في الاريجية) »[١٢] انهما يمثلان ، كل على حدة ما نحن بسبيله فالاناء الاول يبين لنا بوضوح معنى اختزال اشكال حيوان الماعز الجبلي المرسوم على فخاريات دور سامراء كاربع حيوانات متكاملة المظهر ـ اقول ، اختزالها في هيئة اربعة اشكال شبه مثلثة تنطوي على التجريد والتشخيص معاً من خلال الشكل المثلث بحيث يتكون احد اضلاعه من خط منحني وليس من خط مستقيم . ان هذه الاشكال تقع في القسم الوسطى من الاناء بحيث تلتقي زواياه العمودية في مربع تحيط به الاشكال الدائرية (رمز القمر) . اما الحلقات المحيطة بوسط الاناء وهي تربو على العشرين حلقة ففيها يتناوب رمزان اساسيان يمثلان معنى الماء هما (الموجة المائية) و (قطرات المطر) . وهكذا فان في هذا الاناء الاول تبدو [الوحدات الذرية] فيه وهي الممثلة لـ [انكيدو] وكانها تستقصي ، لا في اتحاد الانسان بالحيوان بل في اتحاد الشكل الهندسي بالشكل ما قبل الهندسي . [لعل الشكل الهندسي في تجريديته يحقق الذهنية في نزوعها نحو الالهة . فهو جانب من جلجامش في حين تظل رموز الطبيعة مقتصرة على انكيدو . اما في الاناء الثاني فنحن ازاء (زهرة) بتويجاتها وقلبها ، تتوسط الانية ، وهي محاطة بعدة حلقات تحتوي على زهور اخرى رباعية التويجات فهي اقرب الى ان تعني جلجامش من ان تعني انكيدو .

على ان الملامح الميثولوجية لانكيدو ، على الرغم من ان وحداتها الذرية تكمن في العلاقة ما بين العالمين الحيواني

والنباتي ، اي بين وحدتين تمثلان الطبيعة لا الاسطورة فهي تتضح شيئاً فشيئاً كلما توغلنا في العصر السومري . ففي حدود خمسمائة عام [٢٩٠٠ ـ ٢٣٥٠ ق . م] كان على شخصية انكيدو ان تتبوأ منزلتها في الاختام الاسطوانية والنحت البارز والرسم والشعر الديني بشكل او بآخر . فهناك مثلاً بعض البدايات الاولى ، التي لا تزال [تعايش] او توالف مابين الحيوان والنبات كما في « قدح من رخام رمادي اللون نقش ظاهره نقشاً بارزاً بمنظر يمثل خمسة ثيران وسنابل وجد في أور ويقدر زمنه من بداية الالف الثالث قبل الميلاد . »[١٢] ذلك اننا عند تأملنا النحوت البارزة على سطحه لا نستطيع ان نحتوي الثور والسنبلة كلاً على حدة بل اننا ننظرهما معاً ، مما يرجح ان الغرض من نحتهما بهذه الهيئة هو الايحاء للمشاهد بكيانهما المؤحد . وكذلك الامر بالنسبة لفخار ديالى الفرمزي [١١] والذي يتضمن على سطحه من بعض ما يتضمن من رسوم مشهد الماعز الجبلي الذي يلتوي قرناه كانهما موجتان ، وينتصب ذنبه بل يتمثل على شكل السنبلة . وهذه الانية التي نوهنا بها آنفاً هي « من تل اجرب برقم ٣٢٠٢٩ ـ ع ، ويقدر زمنها من بداية الالف الثالث ق . م)[١٣] .

اذن فان شخصية انكيدو تظل عبر العصور وبضمنها العصر السومري اكثر وضوحاً من ذي قبل . فهي سليلة الفكر الرعوي العائر لان يصبح فكراً زراعياً . ذلك ان صلته العريقة بالارض ترشحه لان يكون ممثلاً للاله (انكي] او [أبا] اكثر من [آنو][١٤] فهو اقرب الى إله الارض والماء منه الى إلاه السماء . ومن هنا معنى تجذره بالتصوف اكثر من التفقه . واذا كان ايقاعه ايقاعاً سكونياً لانه يمثل معنى [الصمت][١٥] لا الكلام وينتسب الى الطبيعة لا الانسان فان وجوده في صميم الكيان الاسطوري يمنحه دونما ريب حق الايغال ماوراء الزمان والمكان معاً . فلنتعرف على وجوده الاسطوري ، اذن ، من خلال هذا الكيان الثقافي بالذات

القسم الاول :

٢ / شخصية انكيدو في ملحمة جلجامش : يعتمد للالمام بمعنى الاسطورة في سياق التاريخ على ادراك علاقتها بالاثنولوجيا . فهي ، اي الاسطورة ، مهما ظلت نوعاً من « التفريغ لمشاعر حقيقية . ولكنها مكبوتة (في الميثولوجيا)[١٧] فانها تظل جزءً منها . ومع ذلك فان الاسطورة توجد ايضاً « ضمن اللغة و ورائها في آنٍ واحدٍ معاً . »[١٨] بل انها توجد كذلك او انها لاتتالف من مجموع رواياتها المختلفة . »[١٩] . والواقع ان مثل هذا الفهم يبقى هاجسنا في انتساب الاسطورة الى الاثنولوجيا ، لانها تبدو بمثابة الجملة او العبارة من الكلمة والكلمة من الابجديات اللغوية . فكما ان الكلام لا يحيى دونما نظام لغوي معين ، كان يكون للخطاب العربي اصوله في الابجدية العربية ، فكذلك الاسطورة ، اذ لا يمكننا التعرف عليها دونما معرفة مسبقة بالمناخ الاثنولوجي الذي نشات فيه . على ان هذا المناخ نفسه ، اذا ما حاولنا ان نصفه فسنجده يعتمد ايضاً على شعورنا الانساني (بالعلاقة) المتكونة فيه بين الزمان والمكان من جهة والجزء والكل من جهة اخرى . فاذا تم لنا ذلك على ما يرام امكننا ان نُمسك بمعنى الاسطورة بل بعفزاها وفي اصغر شكل ممكن . هنا سيبدو لنا بغتة ان معنى الزمان والمكان يتمحور فيهما وفي الذرى الاثنولوجية ، اي في تلك المساحة المكانية التي يختزل فيها الكل الى كل اصغر [مع ما سترتع فيه من اجزاء] او في (اللحظة ـ الهباءة) معاً . فحينئذٍ سينبثق فينا معنى الاسطورة مرة واحدة .. كلحظة صحو ذهني فريدة . ومن هنا ايضاً فان الاسطورة وقتئذ هي بمثابة (الذروة) او القمة من السفوح الجبلية . فالسفوح تبقى متعددة ولكن القمة واحدة . او ان لكل سفح زمانه ومكانه اما الذروة فليس لها زمان ومكان . فهذا هو ما يحدو بنا الى تحديد كيان انكيدو في ملحمة جلجامش او اسطورة جلجامش بكونه (تكويناً) متجاوزاً حدود (الواقعة) التاريخية للاسطورة . او ان علينا ان نتبين منزلته في قمة الجبل بلا . سفوحه ، وبالضبط منزلته في مساحة الذروة وخامتها او نسيجها الاثنولوجي ، هو الاسطوري قلباً وقالباً .

والان .

لنبدأ بتحليل ملحمة جلجامش لنتعرف على شخصيته فيها ، او لنبدأ بتحديد (انكيدو) في سياق الاسطورة ، كتمهيد لاكتشاف ملامحه في التصوف الاسلامي ، باكتشافنا محوري الملحمة التعاقبي والاني .

أ ـ ان المحور التعاقبي Diachronic

يصوره لنا فيها منذ البداية كمخلوق خليقي Creature . فهو يولد ويعيش في البرية مع الحيوانات ، يالفها وتالفه . ذلك ان الاله آنو لما استمع الى شكوى سكان ارك استنجد هؤلاء من بعده بالالهة اورور : « يا ارورو (العظيمة) انت التي خلقت هذا الرجل (يعني جلجامش) بامر انليل فاخلقي الان غريماً له يضارعه في قوة اللب والعزم . وليكونا في صراع مستديم لتنال اوروك السلام والراحة . حالما سمعت اورورو ذلك تصورت في لبها صورة لانو ، وغسلت ارورو يديها واخذت قبضة من طين ورمتها في البرية وفي البرية خلقت انكيدو الصنديد ، نسل نذورتا القوي »[٢٠]

وبعد ان خلقت الالهة انكيدو اصبح « لا يعرف الناس ولا البلاد . يلبس لباساً مثل [سمومتان] (اي الماشية كما يرد في حاشية النص الاسطوري المعد] ، ومع الظباء ياكل العشب . ويستقي مع الحيوان موارد الماء ، ويطيب لبه عند ضجيج الحيوان في مورد الماء »[٢١] وهكذا فان انكيدو في هذه المرحلة

الاول من تاريخه الشخصي الاسطوري هو كائن خليقي ، يتعايش مع الحيوانات فكانه واحد منها بل انه ليعادي الانسان الذي يصطاد الحيوانات : « لقد ذعرت منه فلم اقو على الاقتراب منه (هذا القول لصياد التقاه انكيدو عند مورد الماء) . ملأ الاوجار التي حفرتها وقطع شباكي التي نصبت ، فجعل الصيد وحيوان البر تفلت من يدي . لقد حرمني من القنص في البرية » .[٢٠]

تلك هي المرحلة الاولى من مراحل حياته . ولكننا نجده في المرحلة الثانية متحولاً (او متطوراً) الى مخلوق انساني اسطوري ، ليصبح نداً لجلجامش بعد ان يتعرف على المرأة : « فاذهب اليها اي الى البغي شمخة ، وهي التي امر جلجامش الصياد مستدرجاً بها انكيدو) ، وتعلق بها . »[٢٢] ويحدثنا النص ان تحولا جوهرياً طرأ عليه بعد هذا التحول ، فهو الان كائن انساني وليس كائناً خليقياً لانه لم يعد يانس الى الحيوان : « كلمت البغي انكيدو وقالت له صرت تحوز على الحكمة يا انكيدو مثل اله ، فلماذا تتجول في الصحراء مع الحيوان ؟ »[٢٣] بل ان هذا التحول في شخصيته سيقابله رد فعل في الطرف المقابل اي في سلوك الحيوانات ازاءه : « فما ان رأت الظباء انكيدو حتى ولت هاربة وهرب من قربه حيوان الصحراء . هم انكيدو ان يلحق بها ولكن وهنت قواه . خذلته ركبتاه لما اراد اللحاق بحيواناته . اضحى انكيدو خائر القوى لا يستطيع العدو كما كان يفعل من قبل ، ولكنه صار فطناً واسع الحس والفهم . »[٢٤] ونحن نستطيع ان نحدس في هذا كله انه لم يعد منسجماً مع النسق الخليقي لانه اصبح موجهاً اهتمامه لقواه الانسانية الصرف . (لنقل انه اصبح اقل انفتاحاً ازاء الطاقات الكونية وان الدائرة الذهنية التي كان مكرساً لارتيادها اصبحت اقل شمولية) وها هوذا قد عاد (قابياً) في خصوصية نوعه البشري عبر قواه العقلية والحسية والشعورية في حين تخلى ، كما يبدو ، عن طاقاته الحدسية وقدراته الغيبية مما كان يتيح له التفاهم مع سواه من الكائنات وخاصة الحيوانات ، فلقد اضحى في قطيعة واياهم . بل ان مارافق هذا التحول تحول فسيولوجي آخر . اذ غدا اقل احتمالاً للعدو او الجري كما تجري الظباء وغزلان البر وربما ايضاً اقل حدة في البصر والشم ، وهو ما تمتاز به بعض الحيوانات ، مثل الخيول او الكلاب ، عن البشر .[٢٥]

مهما يكن من امر ، فان انكيدو في المرحلة الثانية من تاريخه الشخصي في الاسطورة اصبح كما يبدو كائناً بشرياً ، الا انه لم يعد ليتمتع بقواه الغيبية سوى ان يستبدل صداقته للحيوان بصداقته لجلجامش . فكانه في استبداله لقواه الغيبية الخليقية تلك كان يعوض عنها بقوى اخرى غير مباشرة ، وهي ما يتمتع به صديقه جلجامش من (نسل) إلهي . (بعد ان يلتقي به كفريم ثم كصديق) . لقد استطاع ان يتجاوز (دور مراهقته) عبر منحنى سيرورته . ولسوف يتبع اكتمال رجولته الانسانية بعد صراعه (الايروتوكي] مع المرأة صراعه [التدميري] مع الرجل [انه بلا شك (الازل المعكوس) للصراع التقليدي والطقسي لانتخاب الشخصية الدموزية] .[٢٧] وهكذا كان التقاء انكيدو جلجامش نهاية سيرورته الخليقية الاولى (سيرورته الثانية ستتم بان يصبح اهلاً لمنازلة ثور السماء) . ومعنى هذا اللقاء لجلجامش انه لو كان قد انتصر عليه لتحول نهائياً عن شخصيته الصوفية الى كائن عقائدي (الى صاحب دعوة) ، ولكنه لم ينتصر ، وهذا ما حفظه وابقاه على هويته رغم في نفس الوقت الى مستوى جديد من المعرفة الخليقية .

او بعبارة اخرى ان تحوله نحو الانساني ، هو الخليقي ، كان قد اكسبه معرفة جديدة رفعت من نزعته الخليقية عبر نزعته الانسانية . او ان (موت) انكيدو الخليقي هو (الحياة) الجديدة له في مستواه الثاني . والواقع انه وهو الكائن الاسطوري سيظل اسطورياً من جديد [سوف يتكرر ذلك ثلاثة مرات على الاقل في الملحمة وهذا ما يوازي معنى مرحلة الشريعة والطريقة والحقيقة في التصوف الاسلامي] .[٢٨] ومن هنا نستطيع ان نؤول الى حد ما شخصية انكيدو في مستوياتها الثلاث باعتبارها شخصية صوفية . وهي كما ياتي :

١ ـ شخصيته ككائن خليقي يتخاطب مع الحيوان (وهو موضوع بحثنا)

٢ ـ شخصيته ككائن انساني يغامر مع جلجامش حتى يموت

٣ ـ شخصيته ككائن شبحي يتقمص جلجامش في رحلته [اي زيارة جلجامش جده اوتونابشتم ثم موته بعد ان يُسرق منه سر خلوده] ولعل شخصيته كانت تتخلل اسطورة الطوفان التي ذكرها اوتونابشتم وانبا بها جلجامش . فلم لا نبحث عن انكيدو في كل ركاب السفينة (من كل زوجين اثنين) ، مثلما نبحث عن جلجامش في شخصية اوتونابشتم ؟

انن فما ينبؤنا به تحليلنا للمحور التعاقبي في اسطورة جلجامش هو ان (حضور) انكيدو فيها كان حضوراً ديناميكياً . او انه على الاقل (تقلب) في ثلاثة مستويات كما يتقلب الصوفي معرفياً في (مقاماته) لا (احواله) بيد اننا سندرك ان (عروجه) في مقامه الاول : مقام التوبة هو الذي كان يرشحه دوماً لاكتشاف (مقامه في حاله) او (حاله في مقامه) وهو ما كان يضمن له كما يبدو كيانه الخليقي .[٢٩]

على اية حال فلا زلنا عند وصفنا تحوله الخليقي الانساني اي تمرحله في الطبقة الاولى . نقول انن : اضحى موته الخليقي الاول [بل كان سيتحقق للمرة الاولى] في تعرفه على المرأة . [واني لاجد في نهاية هذه المرحلة من وجوده معنى ولادته التي خلف فيها شهور مرحلته الجنينية ماوراءه . فكان

عشرته مع الحيوان هي نفسها حياة الانسان الجنينية . تلك التي (يتخلق) فيها الانسان بعد ان يمر خلال وجوده (الشرنقي) بكل مراحل التطور الخليقي ، من الاميبا او الحيوان ذي الخجيرة الاحادية التكوين الى الانسان اكمل المخلوقات][٣٠] ، بعد ان اصبح ضريباً على الحيوانات ، اما انحداره امام جلجامش فقد اعاده الى تلك الطبيعة من جديد ، كما نوهنا بذلك سابقاً . وتصف لنا الاسطورة كلّ هذا بالشكل الاتي :

« اجتمع البطلان ، انكيدو وجلجامش في اوروك . فوقف انكيدو في مدخل المدينة ، وتصدى له جلجامش ليمنعه . فنشب صراع دامي اهتز له الجدار . وبعد مقاومة عنيفة صرع جلجامش انكيدو وطرحه ارضاً . ولما هدأ روع جلجامش جاء انكيدو واعترف بقوته وعظمته . ثم اعتنق البطلان كلاهما وثبت بين الاثنين محبة قوية »[٣١] او كما هو مذكور في النص تماماً :

« ولما هيء الفراش لـ (اشخارا)
واقترب جلجامش ليتصل بالالهة
وقف انكيدو في الدرب ، يسد الطريق بوجهه .
رأى جلجامش انكيدو الهائج
الذي ولد في البادية ويجلل رأسه الشعر الطويل
فانقض عليه وهاجمه
تلاقيا في موضع سوق البلاد
سد انكيدو باب بيت العرائس بقدميه
ومنع جلجامش من الدخول الى الفراش
امسك احدهما بالاخر وهما متمرسان بالصراع
وتصارعا وخارا خوار ثورين وحشيين .
حطما عمود الباب وارتج الجدار
وظل جلجامش وانكيدو متماسكين يتصارعان كالثورين الوحشيين
وحينما انثنى جلجامش وقدمه ثابتة في الارض
هدأت سورة غضبه واستدار ليمضي
ولما هدأ غضبه كلمه انكيدو وقال له :
انك الرجل الاوحد ، انت الذي ولدتك امك .
ولدتك امك نتسون ، البقرة الوحشية المقدسة
ورفع النليل رأسك عالياً على الناس
وقدر اليك الملوكية على البشر . »[٣٢]

نحن اذن في سياق المحور التعاقبي هذا نلمح بين آونة واخرى تكون نفس العلاقات في اجزاء الاسطورة . كما في طبيعة التكامل الايروتيكي حينما يجتمع نقيضان ويلتقيا التقاء العنصر السالب بالموجب [التقاء الحيوان والنبات (او الثور والسنبلة) كما في الاناء والذرى السومري [٣٣] او الماعز وذنبه المكون من السنبلة كما في بعض مواضيع فخار ديالى القرمزي[٣٤] و هو في الاسطورة التقاء انكيدو بالمرأة في مطلع المرحلة الثانية منها وكما سيحدث ايضاً في مجابهة انكيدو لثور السماء او البديل للالهة عشتار الهه الحب والحرب . وهكذا يصبح تحليلنا الاني للملحمة (او الاسطورة) بمثابة اكتشاف مثل هذه (الذرى) .

ب ـ المحور الاني

يبدو لنا هذا المحور بوضوح اثناء ايغالنا في رصد تحولات انكيدو المتعاقبة بحيث يتحقق في عدة (ذرى) تتكرر بمظاهرها او [بجلودها] عدد المرات التي يرتفع فيها انكيدو من مستوى الى مستوى آخر . وهذه الذرى هي :

١ ـ موضوع الولادة او تمرس الاله الخالق بخلق انكيدو
٢ ـ موضوع الانتماء للمجتمع (التآلف مع الانسان بدلاً من الحيوان)
٣ ـ موضوع تكامل العنصرين الذكري والانثوي
٤ ـ موضوع التجانس المتماثل او الصراع
٥ ـ موضوع الموت او الفناء وهو الذي يتم فيه التحول بالذات .

وما دمنا بصدد العلاقة بين انكيدو والتصوف الاسلامي من حيث معايشة الانسان للحيوان او اكتشاف شخصية انكيدو الخليقي في المرحلة استطاع فيها الصوفي المسلم ان يعبر عن نزعته الخليقية [تخاطبه مع المحيط الخليقي من حجر ومدر وحيوان ونبات الخ ـ] فان ملاحظتنا اننا ستعنى باكتشاف شخصيته تلك في (ذراها) المتجردة . وستشهد نوعاً جيداً من الالفة بين الانسان وسواه ، تلك التي مر بها انكيدو مع حيوانات البر قبل تعرفه على المرأة . ولكن الالفة هذه المرة ستكون بين انسان تلثاه من الالهة وتلثه من البشر . هو جلجامش وانسان آخر ربما كان تلثاه من البشر وتلثه من الحيوان هو انكيدو .[٣٥]

ولنقل ان هذا التبادل بين جلجامش الذي يتقمص انكيدو و انكيدو الذي يتقمص جلجامش سيؤكد القيمة الانسانية بالذات بحيث ينتج عن ذلك الانسان الكامل* [= ثلث من جلجامش وثلثان من انكيدو] ازاء الكائن الانساني [= ثلثان من الاله وثلث من الحيوان] ربما كان هذا الكائن هو خمبابا بالذات او قوى المخلوقات الشريرة ، وثور السماء ايضاً ، وهذا هو بالضبط ما تسرده الاسطورة نفسها بالرحلة التي قام بها كل من جلجامش وانكيدو الصديقان .

على ان من الملفت للنظر هنا هو تجدد صورة الشر وفق المحور العمودي للملحمة . فقد كان يتم في المرحلة الاولى او المرحلة الخليقية من خلال تلك الشرور التي يلحقها الانسان الصائد بالحيوانات اما الآن فهي (خمبابا) بالذات . كما ان من الصور المتجددة ايضاً صورة (التعرف على المرأة) ، فهي في هذه المرحلة الجديدة (الالهة عشتار) او اينانا وليست البغي شمخة كما كانت في المرحلة الاولى . [بما ان الصراع الايروتيكي لكل من جلجامش وانكيدو اللذين يمثلان معاً الانسان الكامل

مع المرأة . فهي الان بصورتها اللا ـ انسانية ستتآلف من الالهة (أندأ الحيوان الالهه اي من الاتحاد الكائن مابين الالهة عشتار وحليفها ثور السماء] وبعبارة اخرى نقول ، ان جلجامش المتقمص لانسانية انكيدو الحيوانية [= شخصيته الخليقية] سوف يرفض الزواج من عشتار ذات الطبيعة الالهية في الوقت الذي يقبل به انكيدو ، المتقمص لانسانية جلجامش الالهية ، الصراع مع ثور السماء . فكانه في مثل هذه الايجابية الانسانية لمقارعة ما هو الهي كان (متجاوزاً) بطبيعته او فاشياً لسر الهي ناله اكتساباً . وهكذا سيكون نتيجة هذا (التعارض) بين الاصالة الالهية والاصالة الحيوانية (الغاء) ، اي فناء الشاطح ؛ موته . وهكذا يموت انكيدو بمشيئة الالهة . ولنتامل فحوى الصراع منذ بدايته : « فطارد انكيدو ثور السماء ليمسك به . ومسك به من ذيله وضبطه بكلتا يديه . وجلجامش ، مثل قصاب ماهر ، طعن الثور السماوي طعنة قاتلة ، وغرس حسامه مابين السنام والقرنين [ما اشبه هذه الصورة بمشهد من مصارعة الثيران في اسبانيا ؟] وبعد ان اجهزا على الثور السماوي واقتلعا قلبه وقرباه الى الاله شمش ، وسجدا له قعد الاخوان واستراحا »[٣٦] اذن فان مقتل الثور هو مشهد لصيغة (فوق ـ انسانية) لمعنى الزواج والميلاد الجديد لكل من جلجامش وانكيدو . اي ان هذا (الموت) الحاسم لانكيدو [اي موته الصوفي كمنتصر وهو ما يلقيه كمقهور لان القهر هو ما يحقق تسامي الروح] اصبح الان الموت الحاسم لجلجامش ... جلجامش الكائن المنتصر ابداً كانسان ، اذ سرعان ما يستبطن في ذاته انكيدو بحثاً عن الخلود ... سيحزن لموت صديقه ، وسيدافع عن قيمه الانكيدوية طوال رحلته الى جده اتونبشتم . « لانهما قتلا ثور السماوي،وقتلا خمبابا فينبغي ان يموت ذلك الذي اقتلع اشجار الارز »[٣٧] ؛ هذا ما خاطب به الاله آنو الاله انليل (او ماخاطب به اله السماء اله الارض) لكن انليل سيجيب: « ان انكيدو هو الذي سيموت وجلجامش لن يموت »[٣٨] وسنفهم بعد حوار مقتضب بينهما ان موت (الانسان الكامل) اي الوحدة الصداقية ما بين جلجامش وانكيدو ستتصدع تماماً . سيموت انكيدو ويعود جلجامش الى نفسه وقد تلبس* به انكيدو ... او لنقل شبح انكيدو فلو نحن تاملنا هذه السيرة المتكاملة في معنى (الموت) بضوء مقولة الحسين بن منصور الحلاج لادراكنا مغزى (المسخ) الصوفي في شخصية انكيدو او في صورتها السلبية (اي شخصية جلجامش) : يقول الحلاج :

« حجبهم بالاسم فعاشوا ولو ابرز لهم علوم القدرة لطاشوا

ولو كشف لهم عن الحقيقة لماتوا »[٣٩] وهكذا . (حجب) انكيدو في ازله الخليقي اولاً ثم اصبح (طائشاً) في مرحلة (الانسان الكامل) ثم مات اخيراً (كفانٍ) في المرحلة الثالثة من الاسطورة وهي مرحلة سفر جلجامش للقاء جده اتونابشتم .[٤٠]

اذن سيستانف جلجامش مسيرة انكيدو بعد موته ، سيصبح بدلاً عنه بعد فنائه .[٤١] الا اننا وقد توخينا تحليل شخصية انكيدو في الاسطورة وخاصة ما يتعلق بالمرحلة الخليقية له فسينتهي بنا الامر الى استقصاء (بذور) التصوف في هذه الشخصية . فهي واضحة في (سحنته) الفيزيقية المتجذرة في (الطبيعة) وليس في (ما وراء الطبيعة) كما هو شان جلجامش . او انها تقترب مكِ معنى التصوف العام من حيث تاصله في ثقافة الانسان المتاصل لمعنى وجوده في الطبيعة كما ظهر في الذهنية الاسيوية وفي القارة الهندية بالذات . الا ان تصوف انكيدو يبدو لنا ممثلاً الذهنية الرعوية [لا المنبثقة عن ثقافة انسان (الذبات الطبيعي) ولا الانسان الزارع على السواء .] ومعنى هذا ان موقفه (الخطابي) من الحيوان بالذات ينبثق من معنى (الوعي) كحرفة تحاول ان (تستنطق) قوى الطبيعة (كحالة) تجمع ما بين (الطبع) و (التطبع) معاً . او ان الايقاع العام لهذه الحالة يعتمد على تمثلة الموقف الانساني من حيث وجوده الفطري لا القصدي ، مثلما تعتمد على (معايشة) الحيوانات (كقوى) يستطاع (احتلابها) او رعايتها لتتجاوب مع الانسان دونما تسلط تام من قبله (وهو ما يميزه عن موقف الانسان الصائد كمتسلط على الحيوان ليقتات بلحمه) . ان فلسفة الحياة الرعوية هي المسؤولة عن ظهور التصوف الانساني في حالة (خطاب) لما بين الكائنات الخليقية .[٤٢]

الهوامش

(١) يرد في كتب الجغرافية الطبيعية ان « المقصود بالنبات الطبيعي الغطاء الطبيعي كانواع النباتات والاعشاب التي تنمو من تلقاء نفسها على سطح الارض والتي كانت موجودة في جهات كثيرة في الماضي قبل ان يقطع الانسان الاشجار من الغابات ويزيل العشب من مساحات واسعة بقصد زراعة الغلات النافعة . ولذلك كان من المهم ان نميز بين النباتات الطبيعية Vegetation والنباتات المزروعة Cultivated P.

(٢) يرد ذكر انكيدو في ملحمة كلكامش « المصدر السابق » وشقت أزوزو يديها واخذت قبضة من طين ورمتها في البرية . وفي البرية خلقت انكيدو ص ٥٥ .

(٣) يرد في اسطورة جلجامش (ملحمة جلجامش) اعداد طه باقر في وصف جلجامش « كان طوله احد عشر ذراعاً وعرض صدره تسعة اشبار ، ثلثان منه اله وثلثه الاخر بشر » ص ١٥٢ . اما انكيدو فانه يصور عادة على الاختام الاسطوانية بشكل (الانسان / الثور) كناية عن انتصاره للحيوان في حمايته من

الاسد ، بينما يرى د . صبحي رشيد في كتابة تاريخ الفن في العراق القديم (جـ ١) (فن الاختام الاسطوانية) ان « من فكرة الحماية (اي حماية الانسان للحيوانات الاليفة) ظهر الحيوان المركب (الانسان / الثور) الذي يجمع في الغالب بين فكرة البطل الحامي وبين الحيوان المقدس) ص ٤٢ . وعلى كل حال فان انكيدو قد صور من قبل السومريين في اختامهم بالمره [بشكل (انسان / ثور)] فانه قياساً بتكوين جلجامش (ثلثا من الانسان وثلثين من الالهة) فسيكون تكوين انكيدو ، وهو الشبيه بجلجامش بحكم عملية خلقية هكذا وذلك لانه المفترض ان يكون شبيهاً بجلجامش ، المول : ان تكوين انكيدو لابد ان يكون (ثلثا من الحيوان وثلثين من الانسان) وهذا ماسوغ لنا ان نرجح صورة (الانسان / الثور) في الاختام الاسطوانية السومرية وبالتالي الاكدية لانها تمثل (انكيدو) بالذات . » واخذت قبضة من طين ورمتها في البرية . وفي البرية خلقت انكيدو » ص ٥٥

(٤) استخدمنا مصطلح « وحدة الوجود الخليقي » مستنطقين المصطلح الصوفي المعروف بـ « وَحدة الوجود » كناية عن التقاء كل ما خلقه الله تعالى من الحجر والمدر ، الناس والحيوانات والنباتات مما يعرف بذوات الارواح ، ومن الجمادات من غير ذوات الارواح . وهذا المصطلح كما يدل عليه معناه يعني التقاء كل الموجودات في نقطة واحدة هي (الذرة) ، اصغر الوحدات التي يتالف من التئامها الغلاف المادي ، او الظاهرة المادية للمخلوقات ، ولكنه (اي المصطلح) يدل ايضاً على ان (للخليقة) Creation مدلول اعم من مدلوله (الانسانية) Humanity . او ان الانسان هو جزء من نوع عام هي المخلوقات الحية او ذات الكيان المادي والذي يقابل نوعاً آخر هي المخلوقات المتلجية الوجود او الروحية . اي ذات الكيان الاثيري .

(٥) هذه الادوار المارة الذكر هي التي اختصرت فيها العلامة على وحدة الوجود الخليقي اي التي تدل على التركيب لا التصوير (= وحدة اجزاء المنظومة) .

(٦) ربما ارتبطت هذه العلاقة بين [الظاهر والباطن] من جهة وبين [الانفس والاخس] من جهة اخرى بطبيعة العلاقة بين [العلوي والسفلي] في الفيض الافلاطوني « قال افلاطون : وكما تفاضلت الاجرام السفلية ونقص تفاوت بعضها ـ كذلك كانت الاجرام العلوية » [راجع كتاب الافلاطونية المحدثة عند العرب : تلخيص وتحقيق د . عبد الرحمن بدوي ، ١٩٧٧ (الرابوع الرابع ترجمة اسطوميناس وهو الكتاب الاول من الرابوع الرابع من ارابيع افلاطون) / ص ٢٠٧ . الا انها كما يبدو تتجذر في الفكر العراقي القديم من خلال معنى الخلق مابين جلجامش (ثلثاه من الالهة وثلث من البشر) وانكيدو [الكائن الخليقي والذي طالما صور في الاختام الاسطوانية على شكل (انسان / حيوان)] معاً . اما في الفكر الاسلامي ، فان علاقة [الانفس بالاخس] تطورت لدى ابن سينا ثم السهروردي المقتول كما هو معروف في مؤلفاتهما .

(٧) يظهر هذا الشكل بوضوح في كاس سوسة الذهاري ، وهو من مواقع سوسة المعاصر لمكتشفات دور العبيد في موقع العبيد في العراق (٤٠٠٠ ـ ٣٥٠٠ ق . م) راجع كتاب كنوز المتحف العراقي للدكتور فرج صبحي / بغداد ١٩٧٢ / ص ١٩ .

(٨) استخدمنا مصطلح (آنية مكانية) لتوضيح معنى التوافقية Simultaneaiteme وتطويرها من كونها (طريقة في سرد الاحداث التي تقع في اماكن مختلفة من غير انتقال) الى كونها (موافقة) تزامنية ولكن في صيغة مكانية لنفس الاحداث .

(٩) راجع الفصلين الخاصين بالعصر الوسيط والعصر الحجري الحديث من ص ١٩ ـ ١٤٩) HERBERT KUHN : L'ASEENSION DE L'HUMANILE . يرد في المصدر المذكور انفاً « لقد احتلت الاسطورة محل السحر في الفكر الذي يؤمن بالتنجيم (تجمعات النجوم Constellation) والروح Ame والارواح Esprits والموت ، ففي هذا العالم تولد شيئاً فشيئاً مبدأ الشرك Polytheisme وتعدد الالهة . كما ان هذا المجمع Pantheon كان ما يتحكم لدى المزارعين Les Eultivateyr هي الالهة المؤنثة العظمى اما لدى الرعاة فكان ما يتحكم هو الالهة الذكرية » ص ٨٣

(١٠) الاقتصاد الاستهلاكي والاقتصاد الانتاجي من المصطلحات الواردة في كتاب الباحث المعروف ارنولد هاوزر ، الفن والمجتمع عبر التاريخ (ترجمة د . فؤاد زكريا) . يرد في المصدر المذكور (جـ ١) : « ان تغيير الاسلوب في العصر الحجري الجديد يرجع آخر الامر الى عاملين ، اولهما الانتقال من الاقتصاد الطفيلي الاستهلاكي البحت لدى المشتغلين بالصيد التقاط الغذاء الى الاقتصاد الانتاجي البناء لدى مربي الماشية وزارعي الارض وثانيهما الاستعاضة عن النظرة الواحدية التي يسودها السحر الى العالم بفلسفة حيوية الطبيعة ... » ص ٢٧

(١١) بصمجي ، فرج (الدكتور) : كنوز المتحف العراقي / راجع مجموعة المتحف العراقي من الاثار معروضة برقم (٣٣٤٨٨ ـ م ع) ص ٤٦٦ . اما فيما يتعلق بالادوار الحضارية ومراحلها التاريخية فقد اعتمدنا على نفس المصدر في ترتيب الجدول الاتي :

العصر او الدور	المدى الزمني	العصر او الدور	المدى الزمني
١ ـ الحجري القديم	قبل ١٠٠ الف ق . م	دور حسونة	٥٨٠٠ ـ ٥١٠٠ ق . م
٢ ـ الحجري الوسيط	اكثر من ١٠٠٠٠ ق . م	دور سامراء	٥٠٠٠ ق . م
٣ ـ الحجري الحديث	من ١٠٠٠٠ ق . م	دور حلف	٤٩٠٠ ـ ٤٣٠٠ ق . م
٤ ـ دور جرمو	٦٢٠٠ ـ ٦٠٠٠ ق . م	دور اريدو / حاج محمد	النصف الثاني من الالف
٥ ـ دور العوان	اوائل الالف السادس ق . م		الخامس ق . م

العصر او الدور	المدى الزمني	العصر او الدور	المدى الزمني
١٠- دور العبيد ١١- دور الوركاء	٤٠٠٠- ٣٥٠٠ ق.م ٣٥٠٠- ٣١٠٠ ق.م	زمن البدء بالكتابة [البروتولتريت] دور جمدت نصر	٣٢٠٠- ٣٠٠٠ ق.م ٣١٠٠ -. ٢٩٠٠ ق.م

(١٢) نفس المصدر السابق - راجع (ص ٤٢) ، (ص ٤٦٥)
(١٣) نفس المصدر السابق - راجع (ص ١٨٠) ، (ص ٤٦٦)
(١٤) فخار ديالى القرمزي ، تسمية تطلق على الفخار السومري المكتشف في مواقع التربة تلع في محافظة ديالى كما في مواقع (تل اجرب) و (خفاجي) وسواهما . وهي تصف لنا للوهلة الاولى الالوان المستخدمة في صبغ الفخار الوان قرمزية على الاغلب .
(١٥) راجع كنوز المتحف العراقي للدكتور فرج بصمجي ص ٤٦٧ / رقم (٤٠)
(١٥ ب)- يرى د . صموئيل كريمر في كتابه من الواح سومر (ترجمة طه باقر) ان « أن - كي) هي كلمة مركبة تعني السماء - الارض) .. » ص ١٥٢
(١٦) يظل (الصمت) في المنظور اللغوي الجانب الاخر من اللغة المحكية . وهو جانب لغوي توليدي على كل حال . بل وسيميولوجي . وكان الصوفي المعروف الشيخ عبد القادر الجيلاني يتحدث في معنى الصمت في بعض مؤلفاته ومن ذلك قوله ، « سوء الادب عندي ، ولكن اعده رخصة » وهو يعني بذلك ان الاحرى به ان (يصمت) فلا يعلم الخلق لولا ان الله عزوجل (رخصه) بذلك . راجع الفتح الرباني للشيخ عبد القادر الجيلاني .
(١٧) كلود ليفي شتراوس ، بنية الاساطير / وهو الفصل الثاني من كتاب [الانثروبولوجيا البنيوية البنائية] نقل النص مصطفى كمال / مجلة بيت الحكمة عدد (٤) السنة ١٩٨٧ / ص ٦٤
(١٨) نفس المصدر السابق ص ٦٩
(١٩) نفس المصدر السابق ص ٧٥
(٢٠) طه باقر : ملحمة جلجامش / بغداد ١٩٧١ / ص ٥٤ - ٥٥
(٢١) نفس المصدر السابق ص ٥٥
(٢٢) نفس المصدر السابق ص ٥٧
(٢٣) نفس المصدر السابق ص ٥٩
(٢٤) نفس المصدر السابق ص ٥٩
(٢٥) نفس المصدر السابق ص ٥٩
(٢٦) يرى كولن ولسن في كتابه (الانسان وقواه الخفية) - بيروت / ١٩٧٨ / ترجمة سامي خشبة « ان ما يسمى بالقوى السحرية انما هو جزء من هذا العالم الكامن الخفي او قدرات الحاسة السادسة او البصيرة الثانية والرؤية المسبقة والتواصل عن بعد والتنبؤ . وليست هذه القدرات هامة بالضرورة لتطورنا . ان اكثر الحيوانات تمتلكها ، وما كان لنا ان نسمح لها بان تفرق لتختفي وراء ستار اهمال استخدامها لو انها كانت قدرات اساسية .
(٢٧) يعتبر الصراع بين الانداد من الذكور في موسم الخصوبة او بالاحرى بين المتبارين للفوز باحقية الزواج من الهة الخصوبة لدى السومريين مدعاة انتخاب من يمثل شخصية تموز .

(٢٨) لابد لنا من الاشارة هنا ، ولو بصورة اولية ، الى ان هذا (الرفع) ذا الصفة العمودية لا الافقية ، يكاد ان يكون لازمة للذهنية او للثقافة الانسانية في الوطن العربي ، وربما تسرب ايضا الى الثقافات المجاورة . فهو كما يبدو القوام المنهجي للفكر كمعرفة . نلاحظ ذلك مثلاً في الفكر العراقي القديم . فهو من الناحية الدينية يؤمن بتعدد الالهة ولكنه يظل محافظاً على اعتبار الاله آنو [إله السماء ويمتلك سلطات تنسب الى ارواح الوفرة والتكاثر] ثم الاله انليل [اله الريح] ثم الاله انكي [اله العالم السفلي ثم اصبح فيما بعد اله مياه الهاوية التي لا قرار لها التي رمست عليها الارض] . الالهة الرئيسة او الكبرى .
بيد ان اولهم هو الاله آنو فهم اذن الهة السماء والريح والارض / الماء او « انهم اقتسموا فيما بينهم السيادة على ثلاثة عناصر من العناصر الاربعة والعناصر الثلاثة هي الهواء والارض والماء هذا على الرغم من ان سيادة آنو على الهواء غير منازع فيها .
اما الماء فكانت هي الاخرى مقسمة بين نفس الالهة الثلاثة .
وكان طريق (آنو) يفضي تحت سموات انليل وايا » راجع جورج تونتينو :
الحياة اليومية في بلاد واشور (ترجمة سليم طه التكريتي) ص ٤١٠ - ٤١٣ . كما نلاحظ ذلك ايضا في تصورهم التشكيلي .
فان المثلث كان اول الاشكال المرسومة بواسطة الخطوط المتقاطعة (راجع رسوم دور حسونة) اما المربع والدائرة فقد ظهرا بعد هذا الدور في دور سامراء .
في حين سيؤكد العرفان الاسلامي عبر التصوف عن وجود ثلاثة مستويات للمعرفة وهي على التوالي معرفة العموم والخاصة وخاصة الخاصة .
راجع من مؤلفات ابي حامد الغزالي (الاربعين في اصول الدين) كذلك رسالة القشيري للقشيري ومدارج السالكين لابن قيم الجوزية . وغيرها من كتب التصوف

(٢٩) لابد لنا من التنويه هنا الى ان (المقام) في الفكر الصوفي في الاسلام يمثل الوجد او الانتشاء الروحي للمتعبد وهو في محوره التعاقبي . اما (الحال) State فيمثله في محوره الاني . في حين ان تقاطع كل من (المقام والحال) او المحورين التعاقبي والاني كان سيقدح (شرارة) الرؤية الكرامية للصوفي . ومن هنا فان معنى العروج او التسامي (= التحول من مستوى الى آخر وهو ما يمكننا ان ندعوه (بالتقلب) [اني اتقلب في علم الله كما يقول الكيلاني] هو ما ينعطف به حقاً الانتشار المقامي الافقي الى حركة (صعود / هبوط) عمودية ... اي الى (حال) متسامي .
وما نقطة الانعطاف هذه سوى التوبة (اي التوبة كمقام والتوبة

كحال في نفس الوقت) وفي اعتقادي ان الوجود في لحظة البداية هذه هو نفسه ما كان يعبر عنه انكيدو في شخصيته الخليقية ، وما يمكن بدوره الصوفي المسلم من التخاطب مع الحجر والمدر والحيوان والنبات .

(٣٠) يرد في ملحمة جلجامش هذا المقطع : « ثم شقت لباسها شقين (يعني البغي التي تعرف عليها انكيدو) البسته بواحد منها واكتست بالثاني . وامسكت به من يده وقادته كما تفعل الام بطفلها » . راجع ملحمة جلجامش اعداد طه باقر / ص ٦٤ .

(٣١) د . كاظم الجنابي : مقدمة لدراسة اقدم ادب عرفه الانسان / القسم الاول في العراق / بغداد ١٩٥٧ / ص ٧٠ .

(٣٢) راجع ملحمة جلجامش المصدر السابق ص ٦٧ ـ ٦٩ .

(٣٣) راجع الحاشية رقم (١٣) وكذلك الرسم التوضيحي .

(٣٤) راجع الحاشية رقم (١٤) في الفصل نفسه .

(٣٥) يظل الجذر الثقافي لهذه النسبة كامن في معنى (الكائن المركب) حيث ان اقدم شاهد عليه هو (الماعز ـ وذنبه السنبلي) او (الثور والسنبلة) . كما سبق ان ذكرنا . الا ان مغزى هذا يكمن في وحدة الفكر الانتاجي لما بين الرعي والزراعة ، او الرمز الذكري والرمز الانثوي ، وربما الوحدة المؤلفة مابين الطبيعة والفكر ، ثم الاقتصاد الاستهلاكي والاقتصاد الانتاجي .

• المقصود بالانسان الكامل هو الصورة المثالية لانسانية جلجامش كبطل اما المصطلح كما هو المعروف في الفكر الاسيوي (غيومرث) او في فلسفة وحدة الوجود الصوفية فليس هو المقصود بالطبع .

(٣٦) طه باقر : ملحمة جلجامش (ص ٩١٣)

(٣٧) نفس المصدر السابق (ص ٩٧)

(٣٨) نفس المصدر السابق (ص ٩٧)

(٣٩) راجع اخبار الحلاج لابن انجب الساعي . تحقيق لويس ماسينيون وبول كراوس (ص ١١٢)

(٤٠) ان تحليل المقولة بالنسبة لشخصية جلجامش (او الصورة السلبية لانكيدو)

• ان معنى التلبس يختلف عن معنى التقمص . فالتلبس هنا بمعنى تقمص الروح او الوجود الشبحي للميت جسد الحي . اما التقمص فمعناه تقمص روح حي للحي الاخر فهو نوع من المعايشة بينهما سيكون كالاتي :

١ ـ جلجامش المتسلط (محجوب) عن المعنى الخليقي في نزعته الانسانية ـ الالهية ، اولا

٢ ـ جلجامش بعد التقائه انكيدو (يطيش) في شخصية الانسان الكامل اي قتاله لخومبابا ثم ثور السماء .

٣ ـ جلجامش بعد موت انكيدو (يموت عن) المعنى الانساني في استحالته الى كائن صوفي [= رحلته الى جده اتونابشتم ثم حصوله على سر الخلود واخيراً يأسه من الخلود بعد أن تسرقه الافعى هذا السر] .

(٤١) كان علينا ان نسترسل في استقصاء هذا المستوى الثالث من الاسطورة .

***